قصص كرامات الأولياء[1] فى السودان
شكلها، مضمونها ووظيفتها

شرف الدين الأمين عبد السلام

المقدمة:-

إنّ المتأمّل فى الحياة الدينية فى السودان،وفى إطار الممارسات اليومية ،يلاحظ أنّ ظاهرة الاعتقاد فى الأولياء وتبجيلهم تشكل واحدا من أهم جوانب تلك الحياة ومظاهرها، إن لم يكن أهمّها على الاطلاق. ويرتبط بهذه الظاهرة ،الى جانب العادات والتقاليد والممارسات والطقوس ،ضرب من التعبير الشفاهى يأخذ أشكالا مختلفة فقد كانت هذه الظاهرة ومازالت تمثل دافعا فكريا وعاطفيا للابداع. وقد تشكل هذا الابداع وتنوّع فكان منه فن المدائح والتراتيل الدينية وأدب المناقب والكتابات فى الرّد على المخالفين والمنكرين. وكان منه أيضا القصص الشعبى الذى يدور حول كرامات الأولياء وما ينسب اليهم من الأعمال الخارقة. وتحتل هذه القصص أو الحكايات أو الأساطير مكانة متميزة فى التراث القصصى النثرى فى السودان تجعل دارس هذا التراث فى موقف لا يستطيع معه غض الطرف عنها وذلك لما تتسم به من خصائص وما تحمله من معنى للذين يروونها والذين يستمعون اليها ويتفاعلون مع روايتها وما تؤّديه من وظيفة فى سياق المعتقد الذى تعبّر عنه وترتبط به. وسوف تهتم هذه الورقة بدراسة هذه الحكايات لمعرفة طبيعتها من خلال شكلها وأسلوبها ،كما تعنى بمعرفة مضمون هذه الحكايات ووظيفتها فى السياق الاجتماعى الثقافى الذى تعيش فيه.

تعريف الحكايات وبيان طبيعتها

لمّا كانت الحكايات التى نحن بصدد تعريفها تدور حول الأولياء فلا بدّ أولا من معرفة من هم هؤلاء الأولياء. فالولى فى المفهوم الشعبى هو شخص (حيّا كان أو ميتا) قد فضله الله وحباه بنعمة القرب منه بحكم ما يتمتع به من علم لدنّى وخلق دينى وورع وزهد وسلطان روحى وكرامات. "وباعتقاد جمهرة المريدين إنّ مخالفة الولى قد تعود عليهم وعلى أطفالهم باللّعنة والضرر وباعتقاد البعض أنّ الشيخ

لما أوتى من بركة هو خير واسطة بين العبد وربّه ،وأنّ صاحب هذه البركة (حيّا كان أو ميتا) قادر على أن ينقذ أو يشفع لمن يتوسل به ".[٢] كذلك فإنّ البركة التى خصّ بها الله هذا الولى أو ذلك تمكنه من الاتيان بالكرامات التى هى بمثابة الشرف الذى أسبغه الله على الولى تمييزا له عمّن سواه من الناس . وقد بلور الحس الشعبى هذا الاعتقاد فى شكل تعبير قولى هو الحكايات . فما هى تلك الحكايات وما طبيعتها؟

يمكن تعريف قصص أو حكايات الأولياء فى الثقافة الاسلامية فى السودان بأنّها قصص نثرية قصيرة يتم تداولها شفاهة وتنتقل بهذا الأسلوب من جيل الى الذى يليه ،وهى تدور حول ما يأتيه الأولياء من كرامات أو أمور خارقة للعادة . ومن أهم ما يميز هذه القصص هو الاعتقاد فى صحّة أحداثها أى أنّها تعتبر روايات لأحداث واقعية .

قد يتضح ممّا سبق أنّنا نتعامل مع حكايات الأولياء كجزء من الثقافة الاسلامية فى السودان،ويعنى هذا أنّ التعريف الذى اقترحناه لها قد لا ينطبق بالضرورة على الثقافات الأخرى ولكنّه قد يكون مفيدا للثقافات الاسلامية المشابهة . كذلك فإنّ القول بأنّ هذه الحكايات يتم تناقلها وتداولها شفاهة لا ينفى وجود التأثير الأدبى فى مادتها. فالتأثير المباشر وغير المباشر بين الأدب الشفاهى والمكتوب قد تم التأكيد عليه من عدد من الباحثين.[٣] وفى الحالة التى نحن بصددها فإنّ التأثير فى الحكايات حول كرامات الأولياء يجىء بصورة اساسية من الكتابات حول السير والترجمات والمناقب الخاصة ببعض الأولياء والتى وجدت طريقها الى النشر كما سنشير الى ذلك عند الحديث عن موقف الدراسات حول الحكايات أو الأدب المكتوب حولها.

إنّ المحور الذى تدور حوله الحكايات هو الكرامة . أمّا القصة نفسها فعادة ما تكون صيغة قصيرة هى عبارة عن وصف مبسّط لحدث ما فى حياة الولى. وبذلك فإنّ الولى هو الشخصية الأساسية والبطل. أمّا الشخصيات الأخرى فى القصة فهم إمّا ممّن يعتقدون فى الولى فيتطلّعون الى عونه ومساعدته فيتحقق لهم ذلك ،أو أنّهم معارضون فتتم من خلال أحداث القصة هزيمتهم وازاحتهم من مسرح الحدث .

وتبدأ القصة فى العادة بحدوث نزاع أو محنة أو كارثة أو أى مشكلة فردية كانت أو جماعية أو بنشوء حاجة الى مساعدة فى ظرف من الظروف. وهنا تتم الاستعانة بالولى إمّا مباشرة أو بنداء (وهو هنا ما يعرف بالنديهة). وتتم حبكة القصة بالتفاعل الفورى للولى مع الحدث وانقاذ الموقف ببركته أو قواه فوق الطبيعية. وهناك ضرب من القصص تأخذ شكلا مختلفا كأن يتصرّف الولى حيال شخص ينكر ولايته أو يحاول اختبار معرفته الدينية وعلمه. فالنوع الأخير غالبا ما يكون فى شكل اختيار لهذه المعرفة بواسطة أشخاص تلقوا تعليما دينيا منتظما وهم العلماء. والملاحظ أنّه حتى فى هذا النوع من القصص فإنّ الناتج ليس هو تأكيد هذه المعرفة والعلم أو تفوّق الولى فى هذا الجانب ولكنّه نصر يتحقق للولى بفضل علمه الباطنى وبركته.

موقف الدراسات حول الحكايات

هناك الكثير من الدراسات التى أوضحت الدور الرائد والمستمر للأولياء ومشائخ الصوفية فى المجتمع السودانى.(٤) وعلى الرغم من أنّ تلك الدراسات لم تخل من اشارات لحكايات الأولياء إلاّ أنّه لا توجد دراسات منفصلة تعنى بأهمّية ودور تلك الحكايات وما تؤديه من وظيفة فى سياق ظاهرة الاعتقاد فى الأولياء وتبجيلهم. ويلاحظ فى دراسات الفولكلوريين السودانيين بأنّهم قد تعرّفوا على هذا الجنس القصصى إلاّ أنّهم تعاملوا معه فى مستوى محدود. من ذلك مثلا أنّ سيد حامد حريز يشير الى هذه الحكايات فى معرض حديثه عن العناصر الاسلامية فى الثقافة السودانية كما تعكسها قصص الجعليين الشعبى، ويصنّفها تصنيفا صحيحا حيث يضعها مع مجموعة القصص غير الخيالى.(٥) كذلك فإنّ أحمد عبد الرحيم نصر قد تناول بالدراسة والتحليل حكايات الكرامات المنسوبة الى أحد الأولياء السودانيين من أصل نيجيرى. وقد بنيت هذه الدراسة على معلومات وبيانات توفرت للباحث فى مقابلات مع اخبارى واحد وتوصلت الى أنّ الولى هو وسيط بين عالم الانس والجن أو بين الثقافة والطبيعة.(٦)

وعلى الرغم من هذا الشح فى الدراسات المتخصصة حول حكايات الأولياء فى السودان إلاّ أنّ هناك عددا من النصوص فى مراجع ذات

خلفيات أكاديمية مختلفة ومراجع غير أكاديمية كذلك . ومن المصادر المعروفة فى هذا الخصوص كتاب الطبقات . وهو كتاب يحتوى على تراجم للأولياء والصالحين والعلماء والشعراء إبّان حكم دولة الفونج ومن خلال تلك التراجم جاء الكتاب مشتملا على قدر كبير من حكايات الأولياء وغيرها من ضروب التراث الشفاهى. ويجرى فى نفس المجرى كتاب ذيل الطبقات .(٧) وقد حوى كتاب ترمنجهام المعنون (بالانجليزية) الاسلام فى السودان عددا من الحكايات يشير المؤلف بوضوح أنّها اختيرت من كتاب الطبقات .(٨) ومن كتب التاريخ التى ضمّنت بعض الحكايات على سبيل المثال كتاب ب . م هولت المعنون (بالانجليزية) دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى.(٩) وكتاب ريتشارد هل المعنون (بالانجليزية) على حدود الاسلام.(١٠) وممّا هو متوفر كذلك ،كما سبق أن ذكرنا ،بعض الكتب عن سير ومناقب الأولياء والتى من الطبيعى أن تشكل الحكايات جزءا من مادتها.(١١) كذلك فإنّ بعض التجميعات الفولكلورية التى قام بها فى الغالب جامعيون هواة تشمل بعض نصوص الحكايات التى لم تحظ بالتوثيق الكافى.(١٢)

وبما أنّ ظاهرة تبجيل الأولياء تعد أمرا مشتركا فى الثقافات الاسلامية ،وخاصة الافريقية والشرق أوسطية فإنّ هناك من الدراسات ما كانت هذه الظاهرة محورا له .(١٣) وتلك الدراسات إمّا أنّها حول الظاهرة عموما أو أنّها تدور حول مشائخ أو أولياء بعينهم.(١٤) ومع ذلك فإنّ أيّا من تلك الدراسات لم يخصّص لدراسة حكايات الكرامات فى سياقها الاجتماعى الثقافى وصولا الى معنى تداولها ووظيفتها فى مجتمع اسلامى محدّد.(١٥)

السياق الاجتماعى للحكايات

(أ) مناسبات رواية الحكايات

تشير الدراسة الحقلية الى أنّ رواية حكايات كرامات الأولياء تتم فى مناسبات متنوعة فى حياة السودانيين الى درجة يصعب معها تخيّل أى مناسبة اجتماعية لا تصلح لتبادلها. كذلك فإنّ روايتها لا تتقيد أو ترتبط بزمان أو مكان بعينه كما هو الحال مع بعض ضروب القصص الشعبى الأخرى كالحجوة.(١٦) وقد تجىء روايتها فى سياق حكاية قصص الأطفال ليلا.(١٧) إلّا أنّ هناك مناسبات بعينها تعتبر أنسب

لها. ومن تلك المناسبات تجمّع المريدين فى مكان إقامة شيخهم أو زاويته خاصّة عقب صلاة المغرب . ففى هذا التجمّع يتبادل الناس الحديث عن أحداث الحياة اليومية ومن خلال شعورهم بطعم الأخوّة يتبادلون كذلك المعلومات الخاصة بشيخهم. وفى ثنايا ذلك يتبادلون رواية الحكايات المنسوبة له. كذلك تجىء رواية الحكايات فى المناسبات المرتبطة بالممارسات الصوفية والتى تأخذ الصفة المهرجانية كالليلية والمولد والحولية. وقد أشارت الدراسات الى أنّه فى مصر أيضا فإنّ الاحتفالات المشار اليها يكون فيها الولى هو الموضوع الرئيسى للحديث ،ومن شفاه الذين يعرفونه جيدا والذين يرتبطون به برباط وثيق يسمع بقية الناس عن كراماته وعن تعاليمه. (١٨)

ومن المناسبات الدينية الأخرى لتبادل الحكايات موسم الحج الذى تسبقه وتليه تجمّعات تشكل خلالها المدائح الشعبية والقصص الدينى جزءا متعارفا بل ومكمّلا. ومنها أيضا تجمّع الناس فى الساحات والمنازل لتناول إفطار رمضان. ومن هذه المناسبات أيضا التجمّعات التى تسبق أو تلى الصلوات فى الزوايا أو المساجد. (١٩)

وبالاضافة الى تلك المناسبات الدينية فإنّ رواية القصص الخاص بكرامات الأولياء تتم فى شتى المناسبات الاجتماعية وسط الأسر أو فى التقاء الأصدقاء وفى اللقاءات غير الرسمية عموما. فقد أشار عدد من رواة الحكايات الى أنّهم يتبادلون رواية الحكايات أثناء "الونسة" العادية وفى أى وقت . يقول الراوى هجو عبدالقادر منير فى ذلك :"فى مناسبات زى اجتماعنا دا، إذا جا ذكر ولى فى الونسة يقوم واحد من الناس ويحكى كراماتو ويقوم شخص آخر بحكاية قصص ولى تانى. وفى المناسبات الاجتماعية وفى وسط الأسر زى أسرتنا دى. (٢٠) كذلك فإنّ الرواية لا تتقيّد بزمن معين على نحو ما ذكرنا يقول نفس الراوى: (ينحكيها فى أى وقت). ويقول الراوى بابكر الزين بابكر: (فى مناسبات زى كلامنا دا ،نحن نتحدث عن كرامات الشيخ ود بدر،عن كرامات الخليفة مصطفى. دى هى الطريقة البنحكى بيها الكرامات). (٢١) أمّا الراوى يسن محمد توم فيقول: (فى أى محل وفى أى مناسبة وفى أى وكت ،وفى اجتماعات الأعراس والبكيات وفى

الطريق للحواشات والرجوع منها. فى البص وفى مجالس الونسة العادية فى المساء ولا أثناء النهار).[٢٢] ويشكل الاجتماع اليومى لسكان القرى فى الأمسيات فى "ديوان" أو منزل الضيافة الخاص بأحدهم مناسبة لمناقشة موضوعات تحظى باهتمامهم وتبادل الأخبار المحلّية عن قريتهم والقرى المجاورة. وفى سياق ذلك يتبادلون رواية مختلف التعبيرات القولية خاصّة القصيرة منها كالألغاز والأمثال والنوادر وقصص التجارب الشخصية وقصص كرامات الأولياء، كذلك قد يتجمّع القرويون بمناسبة زيارة بعض المادحين (المدّاح) لقريتهم ويشتمل أداؤهم فى العادة على المدائح النبوية ومدائح لبعض المشائخ المعروفين فيقود هذا الى ترديد بعض قصص كراماتهم. يضاف الى كل ذلك المناسبات الاجتماعية المعروفة فى بيوت المآتم والأعراس.[٢٣]

وكما أنّ للرجال تجمّعاتهم التى يتبادلون فيها الحكايات فإنّ للنساء أيضا المناسبات الخاصّة بهنّ. ونذكر هنا تجمّع النساء فى القرى فى الفترة الصباحية وبعد الفراغ من عمل المنزل لتناول القهوة وهى جلسات متميزة ومعروفة يتم من خلالها تبادل الحكايات. ونذكر أيضا أنّ تجمّعات النساء فى مناسبات الأعراس والمآتم تمتد فى العادة الى فترة أطول من تجمّع الرجال. كما أنّ المرأة المتوفى زوجها تحتجب فى المنزل لمدى شهور. وفى خلال هذه الفترة تحظى الأرملة بالوجود الدائم لأقربائها من النساء وكنوع من التسلية فإنّهنّ يتبادلن رواية مختلف أنواع القصص ومن بينها حكايات الكرامات. فقد أورد سيد حريز مثلا حالة امرأة أصبحت رواية نتيجة لتجمّع قريباتها فى مساء كل يوم لمدى عدّة شهور كجزء من رغبتهنّ فى تسليتها وإحسان رفقتها حتى لا ينتابها الشعور بالوحدة.[٢٤]

يتضح ممّا سبق أنّ رواية حكايات كرامات الأولياء فى المجتمع السودانى لا تتقيّد بمناسبة بعينها أو زمان أو مكان. كما أنّها لا تحتاج الى تجمّعات متفق عليها أو يتم تحديدها مسبقا كما هو الحال بالنسبة لبعض أنواع القصص الشعبى الأخرى.[٢٥] فهذه الحكايات تنداح بصورة طبيعية وفاعلة فى الحياة الاجتماعية وفى كل سياق اجتماعى تقريبا.

(ب) من هم رواة الحكايات

ينتفى الاحتراف تماما فى رواية قصص كرامات الأولياء. فلا يوجد الآن ولا فى أى وقت مضى رواة محترفون لأداء هذه الحكايات. كذلك فانّه ليس هناك مفهوم عن راوى الأساطير الجيد على أساس الهامه الفنّى كما هو الحال فى فن رواية الأسطورة. عموما فإنّ (أى شخص يمكن أن يكون ناشرا للأساطير طالما أنّه يزعم بأنّه يحكى الحقيقة). [٢٦] ومع ذلك فهناك مفهوم عن الراوى الجيد فيما يتصل بعنايته ومقدرته على التوثيق الذى يؤكد صحّة الحكاية.

وفى السودان فإنّ الذين يقومون بنشر الحكايات فى الغالب هم الرجال من أفراد المجتمع وكبار السن منهم على وجه الخصوص. فمن أصل الواحد وأربعين مخبرا الذين ساهموا فى رواية النصوص التى تقوم عليها هذه الدراسة كانت أعمار خمسة وعشرين منهم تزيد عن الخمسين عاما. كذلك فإنّ أغلب الرواة يرتبطون بالمعلومات والبيانات التى أدلوا بها وذلك لأنّهم عادة تكون صلتهم وثيقة بالشيخ أو الولى الذى تدور حوله الحكايات. فهم إمّا من أقرباء الولى المعنى أو هم من حيرانه الذين وهبوا أنفسهم لخدمته ويقيمون معه بصورة دائمة ويرافقونه فى أسفاره. ومن بين هؤلاء من يعرف "بمقدم" الشيخ للدلالة على مكانته الخاصة من بين بقية الحيران. ومثال ذلك الراوى فضل فرج الله على الذى رافق الشيخ يعقوب الشيخ هجو لمدى عشر سنوات. وقد ذكر هذا الراوى بأنّه سمع معظم حكاياته إمّا مباشرة من الشيخ أو من آخرين فى مجلسه. [٢٧] وقد سجّل سيد حريز ملاحظة مشابهة فى بحثه عن قصص الجعليين الشعبى حيث يقول: (إنّ كل حكايات الأولياء فى هذه المجموعة قد تم تسجيلها من كبار السن الذين لمعظمهم صلة بهذه الحكايات فبعضهم أحفاد وأتباع للمشائخ الذين تدور حولهم هذه الحكايات[٢٨] ومع أنّ كل شخص يمكنه أن يكون ناشرا لهذه الحكايات الا أنّ المجموعة المذكورة تتميز بقربها من مصادر الحكايات وبهذه الصفة يعتقد بأنّهم أقدر على التوثيق الذى يعتبر شرطا مهمّا للتدليل على واقعية الحكاية.

ومع أنّ النساء يشتركن فى عملية نشر الحكايات إلا أنّه

يعتقد بأنّ روايتهنّ عادة ما تكون أقل دقة ومعقولية ،بسبب ضعف التوثيق والافتقار الى الدليل. وهذا المفهوم مرتبط بطريقة أو أخرى بصورة المرأة ووضعها الاجتماعى،فتعتبر النساء مثلا أقل جدّية ومعرفة من الرجال خاصة عندما يكون الأمر متعلّقا بالدين. ومادامت الكرامات فى نظر المجتمع هى شىء جاد وحقيقى فإنّ هذا لا يتفق مع ما عرف عن النساء من ميل نحو التنميق والمبالغة وهو أسلوب يتماشى مع القصص الخيالى الذى عرفن بروايته. يضاف الى ذلك أنّ الأماكن التى يتم فيها عادة تبادل الحكايات غير مفتوحة للنساء اللائى يبقين فى الدائرة الأسرية ويتقنّ رواية الأحاجى للأطفال. وبالمثل فإنّه من غير المتوقع أن يضطلع الأطفال برواية الحكايات . فالطفل،كما لاحظ سيد حريز، أكثر جدارة بحكاية قصة حيوان من قصة كرامة.(٢٩)

إنّ ما لاحظناه من أنّ رواية حكايات كرامات الأولياء فى السودان ترتبط الى حد كبير بالبالغين من الذكور فى المجتمع ، وخاصة الذين ينتمون الى أسرة الولى أو أتباعه ،فهو أمر قد أشارت اليه الدراسات فى الثقافات المشابهة للثقافة السودانية الاسلامية. فقد لاحظ سعد عاشور مثلا فى دراسته عن الولى المصرى السيد أحمد البدوى أنّ الحكايات عن هذا الشيخ يتم تأليفها ونشرها بواسطة أتباع الشيخ وخلفه. (٣٠)

(ج) الراوى ومستمعوه

أشار الباحثون فى مجال القصص الشعبى النثرى الى أنّ السؤال عن تعاون الحضور وتفاعلهم مع الراوى فى هذا الجنس الأدبى الشعبى هو سؤال أساسى لفهم معنى هذه القصص. فتقول الباحثة الأمريكية ليندا ديق مثلا"بأنّ القصة الشعبية تتبلور الى درجة كبيرة نتيجة التفاعل بين الراوى ومستمعيه فى سياق اجتماعى محدّد." (٣١) فالرواة قد يلاحظون تطلّعات المستمعين ويتفاعلون مع ما يقترحونه من تعديلات واضافات ممّا قد يؤثر حتى فى بنية القصة.(٣٢) وقد اعتبر هؤلاء الباحثون عملية التعاون بين الراوى والمستمعين أكثر فاعلية فى عملية إبداع الأساطير منها فى عملية

تأليف أى جنس قصصى آخر.(٣٣)

يأخذ التفاعل بين الراوى ومستمعيه فى أداء حكايات وكرامات الأولياء فى السودان أشكالا متعددة. من ذلك أن يطلب بعض الحضور من الراوى رواية أساطير بعينها يكونون على معرفة سابقة بها. فمثلا لم يحك الراوى فضل فرج الله على قصة الكرامة المتعلقة بتجربته فى تعلّم قيادة السيارة إلاّ عندما طلب منه بعض المستمعين ذلك.(٣٤)وقد يأخذ ذلك شكل حوار بين الراوى وأحد المستمعين كما فى المثال التالى:-(٣٥)

المستمع: ما بتذكر قصة العلماء الجو مرّة للشيخ التوم؟

الرّاوى: ديك ،جوا يمتحنوه. قصص العلماء الجوا للامتحان كثيرة.

المستمع: حقت العلماء بتاعين سنار.

الرّاوى: بعد ما أدّوهم حاجة شربوها،مشوا للامتحان فى الجامع. ومن ثم مضى الراوى حتى أكمل الحكاية.

وفى بعض الحالات يتدخل المستمعون لتصحيح الراوى فى أحداث أو شخصيات الحكاية أو مكان حدوثها. ففى رواية احدى الحكايات مثلا،تدخل أحد الحضور لتصحيح الراوى فى اسم أحد شهود الحكاية، بينما أصرّ الراوى على صحّة الاسم. ودخل الاثنان فى جدال لم ينته إلاّ بعد أن أمر الراوى،وهو من بيت المشيخة، المستمع بالتزام الصمت باشارة فهمها المستمع فامتثل للأمر.(٣٦)

وقد يكون تدخل المستمعين فى شكل أسئلة ذات أهداف مختلفة قد يكون الغرض منها استجلاء بعض التفاصيل فى الحكاية لم تكن مفهومة للمستمع أو أن يكون على علم بالحكاية ويريد من الراوى أن يكون أكثر دقة فى روايته. ففى احدى الحكايات بدأ الرواى حديثه بالجملة التالية:(مشينا السبيل). وهنا أحسّ المستمع بضرورة أن يذكر الراوى مع من سافر،فتدخل قائلا:(مشيتوا السبيل مع منو) ؟ وهنا استجاب الراوى بذكر اسماء الأشخاص الذين صحبهم فى الرحلة وأكمل الرواية.(٣٧)

وفى بعض الأحيان يأتى المستمعون باضافات يعتقدون فى ضرورتها لتحقيق واقعية الحكاية. ففى احدى الحكايات وكانت تدور حول أنّ جسد أحد الأولياء قد ظل فى القبر كما هو بعد سبع وأربعين

سنة من دفنه ،ذكر الراوى بأنّ أحد الناس ممّن استنكروا حدوث ذلك قد مسّه الضرر. فى هذا الأثناء تدخل مستمعان: ذكر أحدهما اسم ذلك الشخص بينما ذكر الثانى نوع الضرر الذى لحق به فقال: (انشل)(٣٨) وقد تكون مشاركة المستمعين فى شكل تعليقات على ما حدث كالتعجب أو الاعجاب بما حدث والسرور به. فمثلا قد تصدر منهم عبارات مثل: "ما شاء الله" أو "يا الله !". أو "حاجة غريبة". كذلك قد يبدى مستمع ملاحظة على سلوك بعض الشخصيات فى الحكاية خاصة إذا كانت الشخصية فى موقف عدائى أو معارض للشيخ. ففى الحكاية عن المواجهة بين الشيخ التوم وعلماء سنار، التى سبق ذكرها، والتى جاء فيها أنّ العلماء غادروا المكان دون أن ينبسوا ببنت شفة بعد أن رأوا الشيخ يأمر الطير بالسكوت فيمتثل الطير لأمره، قال أحد الحضور فى أسلوب ساخر: "مالك ما تقول الجيت ليهو !" وكرّر العبارة ضاحكا.(٣٩) هذا وقد يأخذ أحد الحضور دور الراوى إذا ذكره الموقف بواقعة مشابهة. على أنّه من المتبع أنّ الراوى الأصلى يصمت ويصغى لروايات الآخرين، ولكنه سرعان ما يستأنف روايته.

يتضح ممّا سبق أنّ الحكايات تأخذ شكلها وتعبّر عن رسالتها عن طريق هذا التفاعل بين الراوى ومستمعيه. واتفق هنا مع ليندا ديق فى أنّ المشاركة اللّصيقة للمستمعين هى سمة أساسية من سمات الأسطورة.(٤٠)

الأسلوب اللّغوى وتكنيكات رواية الحكاية

إنّ لغة الحكايات هى اللغة العربية العامية وهى لغة التخاطب العفوى اليومى. وتجدر الاشارة هنا الى أنّه ليس من السهل الحديث عن لغة سودانية عامية وذلك لأنّه لا توجد لهجة واحدة يتحدثها الناس فى مختلف أقاليم السودان التى تتحدث العربية. فلكل مجموعة اثنية لهجتها الخاصة بها. وكما يقول عون الشريف قاسم فإنّ هذه اللهجات العربية تتباين وفقا للبيئة الاجتماعية وتأثر الناس المعنيين بعناصر بشرية تستخدم السنة غير اللسان العربى.(٤١) وينعكس هذا التباين فى اللهجات الى حد ما فى لغة الحكايات. كما أنّ هناك تباينا بسبب عوامل مثل الجنس والعمر ومستوى التعليم.

فإذا كان هناك حوار فى الحكاية مثلا فإنّ الراوى يحاول تمثيل لهجة الشخصية المعنية. يلاحظ فى لغة الحكايات كذلك تأثرها بالأسلوب الدينى كاستخدام آيات من القرآن الكريم والألفاظ الصوفية مثل "الذكر"، "الحوار" و"الغارية"[٤٢] ويظهر هذا بصفة خاصة عند الرواة الذين تلقوا تعليما دينيا صوفيا.

يشتمل أسلوب رواية القصص الشعبى على مختلف الوسائل التى تمكن الراوى من جذب انتباه مستمعيه وايصال رسالته لهم. فقد لاحظ الباحث جون بول أنّ الأسلوب فى القصة الشعبية يحتوى الايقاع الصوتى وقوّة الصوت أو حدّته والتنغيم والوقفات وتعبيرات الوجه والايماءات والاشارات وتقليد الصوت وكل عملية مشاركة الجمهور فى حالة رواية القصة. ومن الواضح أنّ بعض تلك الوسائل لا تظهر فى جهاز التسجيل بل تحتاج الى صورة متحركة لابرازها.[٤٣] وقد أبدى باحثون آخرون ملاحظات مشابهة حيث أشار الباحث الأمريكى ريتشارد دورسون الى أنّ الراوى أو الشاعر الشعبى، وهو يواجه جمهوره، يستخدم الايماءات وتنغيم الصوت والحركات الأكروباتية وربما الملابس.[٤٤] ويقول أحمد عبد الرحيم نصر أنّ القصة الشعبية تسمع وترى وتحس حيث يستخدم الراوى فيها الايقاع الصوتى وقوّة الصوت وتعبيرات الوجه واستغلال اللّغة.[٤٥] ومن كل ذلك يتضح أنّ مناقشة طريقة أداء الحكاية يقود بالضرورة الى أسئلة تتعلّق بالخصائص الأسلوبية للغة الحكايات. فكما أسلفنا فإنّ لغة الحكايات هى لغة الحياة اليومية وليس هناك اختلافات بينة بين تركيبات الجمل فى الحكاية وتلك اللغة. ومع ذلك فإنّ بعض الرواة قد يستخدمون بعض الرسائل والتكنيكات لتشكيل حكاياتهم وتحقيق دراميتها وتعميق أثرها فى جمهور المستمعين.

أفاد الرواة من لغة التخاطب المباشر فى دفع الأحداث كما استخدموا لغة الحوار لتقوية أدائهم للحكايات. ولكن تلاحظ فى هذه الحوارات أنّه يتم تنغيم بعض الاقتباسات من حديث الشخصيات وتكرارها بطريقة تلائم كل شخصية وتعكس لهجة الشخص المعنى وطريقته فى الحديث خاصّة إذا كان الشخص معروفا لدى الراوى. فقد عرف مثلا عن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد نور أنّه كان يقسم بأم زوجته بقوله: "نسيبتى". وقد تلاحظ تواتر صيغة القسم هذه فى جميع الحكايات

التى رويت عن هذا الشيخ بواسطة عدد من الرواة.

وبالاضافة الى التمثيل الدرامى لصوت وصفات الشخصية فى القصّة فإنّ الراوى قد يقوم بعكس احساس الشخصية فى نقطة معينة من القصّة ليس عن طريق عبارات مباشرة ولكن عن طريق استخدام بعض عبارات التعجب التى ينسبها الراوى لتلك الشخصية أو يظهرها من خلال سلوكه. ففى حكاية الشيخ التوم مع علماء سنار والتى سبق الاشارة اليها أصاب العلماء الذعر عندما رأوا الطير يمتثل لأمره إلاّ أنّ الراوى لم يقل بأنّهم اندهشوا أو ذعروا،بل جعلهم يهمسون لبعضهم بالعبارة:"دا السكت الطير دا إن داير تقول ليهو شنو إ" وكرّر العبارة.(٤٦)أى أنّ الراوى أراد أن يقول بأنّ العالم قال لزميله:"ماذا تريد أن تقول لهذا الذى أمر الطير أن يسكت فسكت ؟"

فى بعض الأحيان قد تعكس اللغة التى تتحدثها شخصيات الحكاية مكانتهم الاجتماعية. فمثلا عندما ينادى الشيخ على حواره فإنّ الرد دائما هو:"نعم سيدى" وعندما يظهر المفتشون البريطانيون أو من هم على شاكلتهم فى الحكايات فإنّ الرواة يحاولون تمثل لغتهم بما يعتقدون أنّه لهجة أو نبرة بريطانية. كذلك يستخدم الرواة لفظ "خواجة" أو "نصرانى" للاشارة الى اولئك الأجانب. ويلاحظ أن الرواة يستخدمون الوصف الأول إذا كان دور الشخص عاديا فى الرواية وهو وصف يعنى الرجل الأوربى أو الأبيض عموما. ويستخدم الرواة اللفظ الثانى إذا كان هذا الشخص خصما يستعان بالشيخ عليه فى الحكاية، وهو لفظ يعنى المسيحى أو الكافر.

ومن الأساليب التى اتبعها الرواة استخدام الأصوات الدّالّة على حركة الفعل. فحركة قفز الأسماك خارج الماء بأمر الشيخ يعبّر عنها بالصوت:"فت ،فت ،فت ،فت." كما أنّ حركة ختم الشيخ لجواز سفر أحد أتباعه قد عبّر عنها بالصوت:"طق،طق،طق". ويستخدم بعض الرواة أساليب مثل الاستفهام الذى يوجه من الراوى للمستمعين للتأكد من متابعتهم كأن ينسب الراوى فعلا لشخص فى الحكاية ثم يتوجّه لجمهور المستمعين بالسؤال:"دا منو؟" فيجيبون بترديد الاسم.

ومن خصائص أسلوب رواية الحكايات تكرار الألفاظ والعبارات

والجمل. ويستخدم التكرار بصفة خاصة كوسيلة ربط وتقوية أو تعزيز للمعنى المراد توصيله للمستمعين. فإذا أراد الراوى أن يقول بأنّ فلانا قال شيئا لعلاّن فإنّه يقول: "فلان قال لعلاّن. قال ليهو ....." وفى كثير من الأحيان يعيد الراوى جملة بأكملها ويكرّرها مع جملة أخرى كقول أحد الرواة مثلا: "بعدين جاء لجبل مويا. لمّن جاء لجبل مويا، كلّو زول عرفو". ويقول الآخر: "سلّم عليهو. بعد ما سلّم عليهو قال لنفسو ....." وقوله أيضا: "عاين ليهن. لمّن عاين ليهن كلّهن وقعن ميتات". وهكذا.

أفاد الرواة كذلك كثيرا من الخصائص الأسلوبية فى لغة التخاطب اليومى. فمن الألفاظ الشائعة الاستعمال فى الروايات كلمة "بعدين"، التى يمكن أن يضاف اليها أيضا الصوت الحنجرى المفخم فى الواو وهو "وّ" لتصبح "وّبعدين". وهذه اللفظة بشكليها المذكورين تؤدى وظيفة تقديم فكرة جديدة أو كوسيلة لربط حدثين أو جملتين فى الحكاية.

وهكذا نرى الى أى مدى استفاد الرواة من لغة التخاطب اليومى ووظفوها لتحقيق درامية الحكايات وأثرها فى جمهور المستمعين بل ومحاولة إشراكهم والتأكد من متابعتهم وحسن انصاتهم.

شكل الحكايات وأسلوبها ومضمونها

إنّ العلماء فى مجهوداتهم لفهم الأجناس الفولكلورية الشفاهية قد تناولوا عملية الابداع فيها من وجهات نظر مختلفة.[٤٧] فبعضهم قارنها بالأشكال الأدبية المكتوبة كما فعل أندريا يولس فى مقاله الكلاسيكى حول الأشكال البسيطة،[٤٨] بينما عقد آخرون مقارنات بين أشكال القص الشعبى المختلفة.[٤٩] أمّا فيما يختص بالأسطورة (أنظر هامشنا رقم ١)، فقد رأى بعض الباحثين بأنّه لها مضمون فقط وليس لها شكل ثابت على الاطلاق. فشكل الأسطورة بتراوح ما بين صيغ قصيرة الى قصّة كاملة. ويرى الباحثون أنّ أثر الأسطورة ينتج من أسلوبها المتميز وطريقة روايتها. وترى ليندا ديق أنّ صحّة أو شرعية الأسطورة "يعبّر عنها فى أسلوبها المقنع".[٥٠] وترى ديق أنّه مهما كان فهى تشتمل على مقدمة وخاتمة. فالمقدمة تحتوى على دليل يهدف الى تعزيز امكانية تصديق القصة وتعريف للشخصيات للتأكد من أنّ جمهور

المستمعين على معرفة بهم. وتختتم الأسطورة بتذكير حقائق الحدث وإعادة تأكيدها.[٥١] هذا وتوافق نسبة ضئيلة من النصوص التى بنيت عليها هذه الدراسة هذا الوصف.

وفى ضوء العرض السابق يمكننا مناقشة شكل الحكايات وأسلوبها ومحتواها. فرواة الحكايات يوظفون عددا من الصيغ الشفاهية لتوصيلها الى مستمعيهم. فقد يبدأ الراوى بعبارة يوضح فيها مصدر حكايته: "سمعت من والدنا عمر الشيخ من أهالى حلّة أبله صديق للشيخ محمد توم نجل الشيخ عبد الرحمن ....." ومن البدايات أيضا: "الكرامة الجاية دى أنا سمعتها من فلان "أو" دى كرامة للشيخ فلان." وقد يبدأ الراوى بـ "قالوا". وهذه الصيغة تستخدام عادة إذا كان الولى صاحب الكرامة بعيدا فى الزمان أو المكان (أو الاثنين معا) من الراوى. وبعد المقدمة فإنّ القصة يمكن أن تأخذ شكلا دراميا وتجىء ذاخرة بالحوار أو أن تأتى فى شكل بيان مقتضب. أمّا نهايات القصص فتتباين. فعدد من الرواة مثلا كان ينهى رواياته بالتعبير الموجز: "دى كانت كرامة للشيخ فلان" أو "دا شىء معروف" أو " دى حاجة شافوها ناس كتيرة". وعموما فالصيغ الختامية ليست من سمات حكايات كرامات الأولياء.

وكما جاء فى وصف ديق فإنّ لبعض الحكايات شكلا محدّدا بمقدمات وخاتمات. وفى هذه المجموعة من الحكايات التى تأخذ شكلا محدّدا (٢٧ حكاية من أصل ٢٣٥ حكاية جمعتها) فإنّ الراوى يبدأ روايته بمقدمة يسمّى فيها مصدره ويذكر الشهود ويصف شخصيات الحكاية للتأكد من أنّ الحضور يعرفونهم. فمثلا بدأ أحد الرواة حكايته بقوله: "جلسنا مع الشيخ يس رجل عالم رجل كبير عمرو مائة وثلاثون سنة. قال: جينا حضرنا الى الشيخ أمحمد ود هاشم ومعاى الفكى أبكر والفكى الفوطانى ود الفوطاوى. وّجاب لينا موية شربنا وّجالسين معاه وّفى الآن جات ولية عربية قات ليهو: يابه أنا ما عندى جنى وّكست الحكما وّكست جاى وّما لقيت طريقة دحين إن شاء الله ربنا بأى طريقة دايره لى ذرية. عاين للفقراء القاعدين معاو ديل الفكى أبكر وّود الفوطاوى قال ليها: أدينك جنى وسمّى الفكى أبكر زى الفكى أبكر دا." وأنهى الراوى حكايته بالعبارة: "دى كرامة

الشيخ أمحمد ود هاشم".

وهناك من الرواة من التزم أسلوب المقدمة والخاتمة فى كل ما رواه. ومن هؤلاء الشيخ أحمد الشيخ هجو.(٥٢) فهو يحرص على ذكر المصدر وإعطاء وصف دقيق للشهود. يقول مثلا: "الحقيقة أحب أقول كرامة لوالدنا الشيخ هجو ومسنودة من شخصين: الشخص الأول سمعت من الشيخ عبد الله ود ابراهيم تلميذ لوالدنا الشيخ فالشيخ عبد الله ود ابراهيم تلميذ لوالدنا الشيخ هجو. فالشيخ عبد الله أخوى قال سألو مرّة قال ليهو: يا الشيخ عبد الله انت اتلمذت لوالدنا الشيخ كتير وأنا عايز أسمع منك كرامة تكون شاهدتها بنفسك . قال ليهو: مافى مانع وان كان الشيخ هجو كراماتو كثيرة يعنى. لكن أقول ليك واحدة شاهدتها بنفسى ". وفى ختام الحكاية يقول: "يعنى أنا سمعتها من عبد الله مباشرة وعبد الله سمعها من الشيخ عبد الله ود ابراهيم اللّهو تلميذ والدنا الشيخ شاف وسمع". ويلاحظ فى هذا النوع من الروايات أنّ اختلافا قد يحدث فى مكونات المقدمة. فالراوى قد يذكر المصدر ويصف الشخصيات دون ذكر الشهود. كذلك فإنّ وصف الشخصيات قد يأتى أحيانا متأخرا فى الحكاية. وكذا الحال بالنسبة للمصدر والشهود.

ومن الوسائل المستخدمة فى تحقيق صحّة الحكاية أو شرعيتها أن يذكر الراوى بأنّه سمعها من شخص لم يكن أصلا من المعتقدين فى الأولياء حتى لحظة وقوع الحادث مادة الحكاية. وفى أحيان قليلة تأتى القصة كتجربة شخصية للراوى أو أن يكون هو أحد شهودها.

إنّ أغلبية الحكايات تأتى فى شكل قصة كاملة ،وجاء قليل جدا منها (عشرة من أصل مجموعتى) فى جزئيات وأوضح مثال نسوقه هنا ما جاء فى روايات أحد الرواة المتعلّمين تعليما جامعيا(٥٣) تدعيما لما يعتقده من أنّ الكرامات مجرّد مبالغات. فبعد أن ذكر هذا قال: "مثلا بقولوا إنّ شيخا ما ضرب التمساح فأحاله الى صخرة" ويقول أيضا: "قالوا الشيخ الصابونابى لمّا الجهدية هاجموا قريتو رفعها فوق الأرض" وقال أيضا: "يقولوا الشيخ بله عاش فى البحر من سنة لسنتين للعبادة". ومع أنّ الأسلوب السائد هو أن تروى كل حكاية

منفصلة إلاّ أنّ هناك حالات قليلة يقدّم فيها الراوى سلسلة من الحكايات تغطى جزءا من حياة أحد الأولياء.

وعلى الرغم من التباين فى شكل القصص وموتيفاتها وأسلوب روايتها إلاّ أنّها تأخذ شكلا بنائيا متماسكا يمكنها من تبليغ نفس الرسالة. ولتوضيح هذه النقطة نقدّم بعض الأمثلة :-

(أ) (١) الشيخ محمد توم وعلماء سنار

١/ يحضر بعض العلماء الى مسيد الشيخ محمد توم ود بانقا بغرض اختياره.

٢/ يرحب الشيخ بالعلماء ويحسن ضيافتهم ثم يذهب معهم الى المسجد للاختبار.

٣/ يأمر الشيخ طيورا تغنّى على شجرة بالسكوت فتمتثل الطيور للأمر.

٤/ ينبهر العلماء ويهمسون لبعضهم ثم يغادرون دون إجراء الاختبار.

(أ) (٢) الحاكم العام

١/ يوشى بعض الناس بالشيخ هجو ود المامع لدى الحاكم بأنّه يجمع الناس لمحاربة الحكومة.

٢/ يرسل الحاكم العام للشيخ لمقابلته بالخرطوم.

٣/ فى مجلس الحاكم العام يبسط الشيخ شاربه حتى يحتوى به جميع الحاضرين.

٤/ يذهل الحاكم العام والحضور ويعلن للشيخ بأنّه ليس لديه اتهام ضده ويطلب منه الرجوع الى أهله.

(ب) (١) العروس التى بها مس من الجن

١/ تصاب عروس بالجنون فى ليلة زفافها.

٢/ تؤخذ الفتاة الى قرية ريبة ليتم علاجها بواسطة الشيخ عبد الرحمن.

٣/ يهدّد الشيخ الجنّى ويجبره على اخلاء سبيل الفتاة.

٤/ يتم شفاء العروس فيفرح أهلها ويكمل الفرح.

(ب) (٢) الشيخ الذى أمر ميكائيل بإنزال المطر

١/ يصيب الجفاف منطقة جليدات لعدم هطول الأمطار.
٢/ يتوسل الناس للشيخ محمد ود هاشم لاغاثتهم.
٣/ يرسل الشيخ حواره (حسان) ليقف على قوز رمل مناديا على ميكائيل بانزال المطر بأمر الشيخ. يهطل المطر غزيرا.
٤/ يسر الناس ويطلبون من الشيخ الحد من غزارة المطر.

(ج) (١) الحوار والنهّابون والشرطة

١/ يقع رجل فى قبضة بعض النهّابين حيث يأخذونه الى منزل مهجور فى أم بدّة.
٢/ يجرّد النهّابون الرجل من ماله وممتلكاته ويزمعون قتله أيضا. يطلب الضحية السماح له بأداء ركعتين قبل قتله. وفى هذا الأثناء يدعو شيخه لنجدته.
٣/ بعد قليل تحضر شرطة النجدة فتنقذ الرجل. يعلم الرجل من الضابط أنّ رجلا وقورا هو الذى أبلغ الشرطة.
٤/ يذهب الرجل الى مكان اقامة الشيخ ويحكى ما حدث له مقدما ذبحا تعبيرا عن امتنانه.

(ج) (٢) التلغراف

١/ يحكم على رجل (يذكر الاسم) بخمس سنوات سجنا لبتره ذراع أحد الناس فى مشاجرة.
٢/ تذهب أم زوجته للشيخ عبد الرحمن بقرية ريبة طالبة العون.
٣/ يقسم لها الشيخ بأنّه سوف يخرجه من السجن. وبعد أيام يصل تلغراف بأنّه قد أفرج عنه.
٤/ يفرح أقرباء الرجل ومعارفه (ضمنا).

إذا نظرنا فى الأمثلة السابقة أمكننا أن نرى أنّ كلاً منهما يمكن فهمه على أنّه يمثل حدثين متقابلين: الحدث الأول يشتمل على وصف للموقف وكيف أنّه قد أبلغ الى علم الشيخ. ويصف الحدث الثانى العمل الخارق للشيخ واحساس جمهور الحضور الذين شهدوا الكرامة أو أبلغوا

عنها. ويلاحظ أنّ كل الحكايات تتكوّن من أربع وحدات . فالوحدة الأولى فى (أ ـ ١ وأ ـ ٢) تختص بعالم أو علماء أو أى قوّة زمنية تقف موقف المتحدى للشيخ أو المهدّد لما اختص به من مكانة. وفى الوحدة الثانية فإنّ الشخص المتحدى أو الأشخاص يذهبون الى الشيخ فى مكان إقامته أو أنّ الشيخ هو الذى يذهب . وفى الوحدة الثالثة تحدث كرامة الشيخ. وفى الوحدة الرابعة يتم التعبير عن الذهول لما حدث أمّا الوحدة الأولى فى المثال (ب ـ ١ وب ـ ٢) فتعرض مشكلة. وقد تكون هذه المشكلة اعتلال صحّة أو عقما أو جفافا لعدم هطول الأمطار. وفى الوحدة الثانية يتم إبلاغ الأمر للشيخ. ويأتى رد فعل الشيخ فى الوحدة الثالثة فيتم حل المشكلة. وفى الوحدة الرابعة يكون التعبير عن السرور بما حدث . وفى المثال (ج ـ ١ و ج ـ ٢) تصف الوحدة الأولى شخصا فى محنة أو خطر. ويتم طلب الاغاثة أو النجدة فى الوحدة الثانية (إمّا مباشرة أو عن طريق الدعاء أو النديهة). وتأتى المساعدة من الشيخ فى شكل عمل خارق فى الوحدة الثالثة. وكما هو الحال فى (ب ١ و ب ـ ٢) تأتى الوحدة الرابعة مشتملة على التعبير عن السرور.

وتجدر الاشارة هنا الى أنّه فى القصص التى تنطوى على معارضة أو تحد للشيخ أو الولى كما فى (أ ـ ١ و أ ـ ٢) وبقية القصص من هذا الطراز فإنّ الذى يبدأ النزاع هو الشخص المعارض. وبذلك فإنّ رد فعل الشيخ يجىء نتيجة لما صوّر بأنّه اعتداء عليه يجب التصدى له فيكون فى ذلك تبرير لفعل الشيخ الذى يعقبه. وقد يكون هذا الفعل سلميا كما فى الأمثلة السابقة ،كما أنّه قد يكون قاسيا وموْذيا قد يصل الى حد الموت . وفى كل الحالات فإنّ الأمر يبدو وكأنّه للدلالة على ما يتمتع به الشيخ من بركة تطول الخصوم.

يتضح إذن من تحليل شكل الحكايات وأسلوبها ومضمونها أنّه على الرغم من الاختلاف فى مظهرها الخارجى أو على مستوى السطح إلاّ أنّها تحمل نفس الرسالة. وهذه الرسالة التى تحاول الحكايات نقلها لجمهور المستمعين هى أنّ للشيخ أو الولى بركة أو قوّة فوق الطبيعية غير قابلة للنقاش وأنّ هذه القوّة توظف لفائدة المجتمع وأفراده ماعدا الذين يعارضون مفهوم الولاية.(٥٤)

خصصت مقالا سابقا للموضوعات المتواترة فى قصص كرامـــــات الأولياء.(٥٥) ولغرض النقاش الحالى أرى أن أقدّم لتلك الموضوعـــات . وقد أشرت فى ذلك المقال الى أنّ الدراسات قد أشارت الى أنّ كرامات الأولياء تعكس تنوّعا كبيرا يشمل إبراء المرض والإخبار عن الغيـب وتقديم العون فى حالات الضيق والمحن وقد يصل الأمر بهم الى إحيـاء الموتى.(٥٦) ويمكننى أن أوجز الموضوعات المتواترة فى قصـــص كرامات الأولياء فى السودان من خلال النصوص التى قمت بجمعهـــا (٢٣٥ نصّا) فى الآتى:-

(١) دحض المعارضة.
(٢) النجدة فى حالات الضيق والخطر.
(٣) التعامل مع الموت والموتى (ويتضمّن إحياء الموتى والحديث اليهم.
(٤) التنافس بين الأولياء فى شكل ما يعرف بـ" الغاريات" (هامش ٤٢)
(٥) المكاشفات أو معرفة الأشياء الخفية والتنبؤ بالمستقبل.
(٦) التحكم فى العناصر (وهى الهواء والماء والنار والتراب).
(٧) الهبات والمنح السماوية للأولياء.
(٨) شفاء المرض.
(٩) التفاعل بين الأولياء والحيوانات المتوحشة وغيرها.
(١٠) استرداد الثروة الضائعة أو المسروقة.

إنّ الدور الرائد للأولياء فى المجتمع السودانى قد أكدتـــه العديد من الدراسات.(٥٧) وباختصار فإنّهم يشكلون القيادة الروحيـة لأتباعهم ويقدمون لهم خدمات متنوعة وللمجتمع عموما. فهم بحكـــم سلطتهم التى لا جدال حولها يتوسطون فى حل النزاعات الاجتماعيـــة التى تنشأ بين الناس من ظروف الحياة اليومية. ويعتقد الكثير مـن الناس أنّ الشيخ لما أوتى من بركة هو خير واسطة بين العبد وربـه وإنّ صاحب هذه البركة (حيّا كان أو ميتا) قادر على أن ينقـــذ أو يشفع لمن يتوسل به.(٥٨) كذلك فإنّ بركة الشيخ تمكنه من دفع ضـــرر القوى الشريرة فى حياة الناس أو الاتيان بكرامة تخلّص شخصا فـــى حالة يأس وبذلك فإنّ دور الولى يغطى الحالات الاستثنائية والدنيوية

على حد سواء.

ومن الأمور الأساسية فى مفهوم الولاية أنّ بركة الولى يمكن أن تنتقل الى خلفه الذى يكون فى العادة من أسرته. ففى النظام الصوفى فى السودان يبدأ الاعتقاد فى ولاية الشخص من لحظة توليه الخلافة وكذلك رواية الحكايات حوله. فالشخص الذى يرث البركة بهذه الطريقة يتوقع منه أن يبرهن على بركته بدليل يكسبها الشرعية بواسطة المجتمع. ولا شك أنّ الكرامات التى يأتيها الشيخ أو الولى تعد أكبر دليل لافت للنظر فى هذا الخصوص. ويمكن القول إذن بأنّ أهم وظائف الحكايات دورها فى تأكيد وإعطاء الشرعية للاعتراف الأولى أو المباشر للشخص بأنّه ولى. فهى تساعد فى تعزيز مكانته ومقامه وتضفى عليه المزيد من الهيبة. كذلك تساهم الحكايات فى جذب المزيد من الناس الى الولى المعنى. وبهذه الطريقة وفى الاطار العام فإنّ الحكايات تلقى الضوء على مفهوم الولاية وتؤكده. وبذلك فإنّ هذا الجنس الأدبى يأخذ الصفة التوضيحية والتأكيدية كما أشارت الى ذلك الدراسات فى الثقافات غير الاسلامية.(٥٩)

ومن ناحية أخرى فإنّ ما يأتيه الولى من عمل خارق يؤكد لأتباعه حضوره الدائم وذلك لأنّ الأتباع يعتقدون بأنّ الولى يمكن أن يتصرّف فى كل المناسبات والحالات. ففعل الولى يعمّق الاحساس بالأمان فى حياة يومية محتومة ومحدودة. وبذلك فإنّ الحكايات تبرّر مكانة الولى الخاصة ودوره فى المجتمع، وبالتالى تؤكد حب أتباعه له واعتقادهم فيه.

ويبدو من القصص الذى يدور حول المعارضة للأولياء ومفهوم الولاية أنّها تؤدى دور الحماية الذى يتعدّى معناها المباشر أو القريب. فالمعارضون والمشككون يشكلون قوّة تنطوى على خطر وتهديد لمجرّد وجود واستمرارية مفهوم الولاية والاعتقاد فى الأولياء. فالحكايات إذن تحاول دحض المعارضة بعقاب المعارضين ليكونوا عبرة لغيرهم ممّن ينتابهم احساس مشابه. والعقاب فى هذا الخصوص كما يظهر فى الحكايات هو المرض أو الموت أو أية فواجع أخرى. يضاف الى ذلك أنّ المعارضين من العلماء، الذين يتعارض موقفهم الرسمى مع مفهوم الولاية ويحاولون بالتالى فضح جهل الأولياء والمشايخ، فإنّ

عقابهم بالاضافة لما سبق قد يكون بتجريدهم من معرفتهم الدينية وإبراز عدم كفاءتهم فى مواجهة الأولياء. وجدير بالملاحظة هنا أنّ موضوع الصراع بين الولى وخصومه هو أكثر الموضوعات تواترا ممّا يقترح وعيا من جانب الحس الشعبى بوجود المعارضة لمفهوم الولاية عموما أو لولى بعينه، الأمر الذى يهدّد المنزلة التى يحتلّها الأولياء فى المجتمع، والتى يجب قبل كل شىء إزالتها أو التخلّص منها. وأيّا كانت الطريقة التى عولج بها هذا الموضوع فإنّ القصص فى هذه المجموعة تتفق فى هدفها وهو دحض المعارضة وترسيخ مكانة الولى فى المجتمع. ويتوقع أن تترك هذه القصص انطباعا طيبا لدى المستمعين فيطردون ما يكونون قد أضمروه من شكوك حول مفهوم الولاية.

إنّ الجانب التعليمى لحكايات كرامات الأولياء قد تم التركيز والتأمين عليه من عدد من الباحثين ليس فى السودان فحسب ولكن أيضا فى ثقافات اسلامية مشابهة.(٦٠) فهى تساهم فى دفع التعليم الدينى وذلك لأنّها تعد وسيلة لتعريف النشئ بالنظام الدينى لمجتمعاتهم وتمدهم بأمثلة للسلوك المستقيم. وقد أصبح دور الفولكلور فى التعليم معروفا وموّمّنا عليه فى عدد من الدراسات.(٦١) ومن هذه الدراسات ما لم يكتف بمجرّد الاشارة لهذا الدور الوظيفى للفولكلور بل عمد الى توثيقه بطريقة شاملة فى بعض الثقافات.(٦٢)

فالحكايات إذن تأتى كبرهان على ما يتمتع به الولى من مكانة خاصة بفضل ما خصّه الله به من البركة والقرب منه. وبهذه الصفة فإنّها تضيف بريقا ولمعانا لشهرة الولى ومكانته المرموقة فى المجتمع. وهى بذلك تلعب دورا رئيسيا فى تأسيس وتأكيد واستمرارية مفهوم الولاية والاعتقاد فى الأولياء كجزء من الحياة الدينية المعاشة فى السودان.

الخاتمة

إنّ قص حكايات كرامات الأولياء هو تراث فعّال فى الثقافة الاسلامية المعاصرة فى السودان. وتشكل الحكايات جزءا أساسيا فى مفهوم الولاية وتبجيل الأولياء الذى ظلّ راسخا منذ دخول الاسلام الى السودان فى القرن السابع الميلادى وخاصّة منذ قيام دولة سنار

الاسلامية فى مطلع القرن السادس عشر. وقد كان لنظام الوراثة دورا كبيرا فى استمرارية مفهوم الولاية المرتبط به.

وقد كان للأولياء خصائص تميّزهم عن غيرهم من الناس تتمثل فى الاعتقاد بأنّهم مقرّبون الى الله وبما اتصفوا به من تقوى زائدة وتجرّدهم التام للحياة الدينية. وبمقتضى هذه السمات احتلّ الأولياء مكانة متميزة فى قيادة المجتمع. فالولى ليس هو القائد الروحى فقط ولكنه قائد اجتماعى وقدوة فى الأخلاق والسلوك المستقيم. فدوره يعد مركزيا فى التركيبة الروحية والأخلاقية والاجتماعية. وبحكم مقدراته فى أن يلعب دور الوسيط بين الله والناس فانّه يؤثر فى كل جانب من حياة أتباعه. وبالنسبة للأتباع فإنّ البرهان الحقيقى على ولايته يكمن فى مقدرته على الاتيان بالكرامات.

وبذلك فإنّ قصص الكرامات لا يمكن النظر اليها من زاوية أنّها انعكاس للانفعال، بما يعتقد منهم ويروى عنهم. وبالأحرى فانّها جزء نشط من الاعتقاد الشعبى فى الأولياء وتبجيلهم. فهى لها الوظيفة الهامّة والمتمثلة فى تدعيم وضمان استمرارية مفهوم الولاية كجزء من التراث الدينى الشعبى الذى يشكل سلوك العامّة وينظم حياتهم.

الهوامش

(١) استعمل "قصص كرامات الأولياء" كمقابل للمصطلح الانجليزى Saint's legends لأنّ اللّفظ العربى المقابل للانجليزى Saint هو ولى، مع اختلاف معنى كلّ منهما فى الثقافتين المعنيتين: الاسلامية والمسيحية. واستعمل الألفاظ "قصّة" و"حكاية" و"أسطورة" بالتناوب. وينبغى الفصل بين أسطورة legend وأسطورة خرافية myth فالمعنى الأول هو المراد.

(٢) يوسف فضل حسن (محقق)، كتاب الطبقات (الخرطوم، ١٩٧٤) صفحا ١٠-١١

(٣) 'a Degh, Folktales and Society: Storytelling Hungarian Peasant:Community (Bloomington),pp.176-63

(٤) أنظر مثلا n W. Adams, Nubia: Corridor to Africa ı, 1977),pp. 569-79; Harold B. Barclay, Buurri Allam- Suburban Village in the Sudan (Ithaca, New York)1964

pp. 182-88; "A Sudanese Religious Brotherhood, al-Tariqa al-Hindiyya," Muslim World, 53(1963):127-37; P.M.Holt, Studies in the History of the Near East (London,1973),pp.121-34; Idris Salim El-Hassan," On Ideology: The Case of Religion in Northern Sudan" Ph.D. dissertation, the University of Connecticut,1980 and Hyder Ibrahim, The Shaiqiaa: The Cultural and Social Change of a Northern Sudanese People (Wiesbaden:1979), pp.149-65.

(٥) Sayyid H. Hurreiz, Jaaliyyin Folktales:(Bloomington,1977), p. 30.

(٦) Ahmed A. Nasr, Maiwunno of the Blue Nile: A Study of an Oral Biography: (Khartoum,1980).

(٧) يوسف فضل حسن: الطبقات ،وطبقات ود ضيف الله : الذيل والتكملة ،تحقيق محمد ابراهيم أبوسليم ويوسف فضل(الخرطوم ١٩٨٢)

(٨) J. Spencer Trimingham, Islam in The Sudan (London,1949) p.5.

(٩) Holt, Studies on the History of the Near East.

(١٠) Richard Hill, On The Fronters of Islam (Oxford,1970), p. 24.

(١١) أنظر مثلا،عبد المحمود بن الشيخ نور الدائم، أزاهير الرياض (القاهرة ،١٩٧٣) ، الرّازقى قلائد الدّر فى كرامات ود بدر (بدون تاريخ) ، الشيخ عبد المحمود بن الشيخ الجيلى الحقبان، الشيخ عبد القادر الجيلى: حياته وآثاره (بدون تاريخ) ، أبو القاسم عثمان الطيب ،عقد الدّر من ود حسونة الى ود بدر (الخرطوم ١٤٠٢هـ.

(١٢) راجع سلسلة التراث السودانى التى تصدر عن معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ،جامعة الخرطوم.

(١٣) Jacques Berque, French North Africa: The Maghrib between Two Wars (New York,1967); E.E. Evans-Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica (Oxford,1949);Ernest Gellner, Saints of The Atlas (London,1973); William Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, 6th. ed.(The Hague and London,1978);pp. 230-48; J. Spencer Trimingham, Islam in East Africa(Oxford,1964).

pp.93-103,and;Islam in Ethiopia (New York,1965) pp.247-56; Edward Westermarck, Ritual and Belief in Morocco (London , 1962), Vol.1,pp.143-228.

(١٤) أنظر مثلا، Martin Lings, A Sufi Saint of The Twentieth Century, Shaikh al-Alawi (Berkley,1971; Michael Gilsenan, Saint and Sufi in Modern Egypt (Oxford,1973; Hassan El-Shamy, "The Story of al-Sayyid Ahmad al-Badawi with Fatma Bint Birry" Folklore Form (1076): 140-164; 10 (1977)1-13, B.W. Andrzjewski, Shikh Hussein of Bali in Gala Oral Tradition (Roma,1974) and "The Roobdoon of Sheikh Agib Abdullahi Jama: A Somali Prayer for Rain, "African Language Studies XI (1970): 20-34.

(١٥) يستثنى من ذلك بعض الدراسات لأندرزجسكى:-

B.W. Andrzejewski, "The Veneration of Sufi Saints and its Impact on the Oral Literature of the Somali People and on Their Literature in Arabic, "African Language Studies, 15 (1974): 14-53, and "Islamic Oral Traditions in Africa: Lives of Somali Muslim Saint, "unpublished paper),School of Oriental and African Studies, Seminar in Oral Literature March 9,1970.

(١٦) من المعروف فى السودان أنّ الأحاجى، أى القصص الخيالى تتم روايتها ليلا للأطفال.ويعتقد بأنّ حكايتها فى أثناء النهار قد تصيب الرّاوى بالضرر. راجع Sayyid H.Hurreiz Jaaliyyin Folktales, p.87; Ahmed Al-Shami and F.C.T. Moore, Wisdom from the Nile (Oxford, 1978), p.2.

(١٧) أنظر Sayyid H. Hurreiz, Jalliyyin, p.91.

(١٨) أنظر Michael Gilsenan, Saint, p.63.

(١٩) أشارحسن الشامى الى أنّ ذلك هو الحال فى مصر. أيضا راجع Hassan El- Shamy, Folktales of Egypt (Chicago, 1980); pp. XLVII.

(٢٠) جاء ذلك فى مقابلة مع الراوى بمنزله بقرية العمارة الشيخ هجو شمال مدينة سنار فى يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من شهر يوليو من عام ١٩٨١.

(٢١) مقابلة مع الراوى بمسيد الشيخ ود بدر فى قرية أم ضوّا بان فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٨١.

(٢٢) مقابلة بمنزل الراوى بقرية أبله جنوب شرق سنار فى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس عام ١٩٨١.

(٢٣) فى احدى المرّات تمكن الباحث من تسجيل بعض قصص الكرامات فى منزل عزاء. وقد بدأ قص الحكايات عفويا وشارك فيه ثلاثة من الرواة. كان ذلك بقرية العويساب الى الشمال من مدينة سنار فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٨١.

(٢٤) Sayyid H. Hurriz, Jaaliyyin, pp.29-3.

(٢٥) Linda Degh, Folktales, p.130.

(٢٦) Linda Degh,"Processes of Legend Formation" in The Proceedings of the International Congress for Folk Narrative Research,Geogios Megas(ed.),(Athens,1965),p.82.

(٢٧) كان هذا الراوى فى يوليو من عام ١٩٨١ عندما أجريت معه المقابلة فى حوالى الثانية والستين من عمره. وقد كان "مقدم" أو تلميذا للشيخ يعقوب بن الشيخ هجو ود الماصع بعمارة الشيخ هجو لمدة عشر سنوات. وكان أكثر رواتى الواحد وأربعين ذخيرة، إذ أنّه روى تسعا وعشرين حكاية.

(٢٨) Sayyid Hurriez, Jaaliyyin, p.94.

(٢٩) نفسه، ص ٩٥. أمّا عن النساء فقد أسهم عدد منهنّ فى رواية بعض الحكايات التى بنيت عليها هذه الدراسة، ومنهنّ الحاجة بت سر الختم وأختها الجار من قرية أم ضوّا بان، والسيدة فزارية من قرية عمارة الشيخ هجو.

(٣٠) سعد عاشور، السيد أحمد البدوى: شيخ الطريقة (القاهرة، ١٩٦٦، صفحات ١٤٤-١٤٦.

(٣١) راجع Linda Degh, Folktales, pp.112-18.

(٣٢) أنظر Ilham Basgóz,"The Structure of the Turkish Romance," Folklore Today, Linda Dégh (ed.) Bloomington,1976. p.16.

(٣٣) أنظر Linda Degh and Andrew Vazsonyi "Legend and Belief" in Folklore Genres,Dan Ben-Amos(ed.)Austin 1976,p.101

(٣٤) سجلت هذه الحكاية بمنزل الشيخ هجو عبدالقادرمنير بقرية العمارة الشيخهجو أمام أكثرمن عشرة مستمعين وذلك فى شهر يوليو من عام ١٩٨١.

(٣٥) تمّ ذلك فى السياق المشار اليه فى هامش ٢٣.

(٣٦) كان الراوى هو الشيخ حسين أحمد البدوى وهو من بيت الخلافة بقرية الشيخ طلحة. وكان مكان التسجيل هو خلوة الراوى. أمّا المستمع فقد كان هو المرحوم السيد ابراهيم المقدم بخيت. وكان ذلك فى الثامن والعشرين من شهر يوليو من عام ١٩٨١.

(٣٧) كان الراوى هو المقدم آدم المكى البالغ من العمر آنذاك سبعة وستين عاما. وقد تمّ التسجيل بمنزل المرحوم الشيخ محمد توم خليفة سجادة الشيخ طلحة وكان عدد الحضور يتعدّى الخمسين شخصا. تم التسجيل فى اليوم السادس عشر من شهر أغسطس من عام ١٩٨١.

(٣٨) كان راوى الحكاية هو الشيخ محمد توم فى السياق الوارد فى هامش ٣٧.

(٣٩) تمّ تسجيل هذه الحكاية من الراوى المقدم تاج الدين البالغ من العمر (فى عام ١٩٨١) خمسة وستين عاما. وكان السياق كما فى هامش ٢٣

(٤٠) راجع

(٤١) راجع Awn al-Sharif Qasim, "Some Aspects of Sudanese Colloquial Arabic," Sudan Notes and Records 46(1965)40-49.

(٤٢) يعتقد بأنّ الأولياء يغيرون على بعضهم روحيا ويتسببون فى أذى بعضهم البعض. ومن هنا جاء لفظ "الغارية" وهو بمعنى الغارة.

(٤٣) أنظر: John Ball, "Style in the Folktale," Folklore, 65(1954): 170-71.

(٤٤) راجع Richard Dorson, "Africa and the Folklorist" in African Folklore, ed. Richard Dorson(Bloomington,1972)p.11

(٤٥) راجع Ahmad A. Nasr, Maiwurno, p.51.

(٤٦) راجع هامش ٣٩

(٤٧) أنظر Dan Ben-Amos,(ed.)introduction to Folklore Genres Dan Ben Amos (Austin 1976),pp.X-XXXI.

(٤٨) تمّ استعراض المقال الذى كتب أصلا باللّغة الألمانية بواسطة عدد من الفولكلوريين. أنظر مثلا، Kurt Ranke, "Einfache Formen," Journal of the Folklore Institute 4(1967):17-31.

(٤٩) راجع مثلا Jacob and Wilhelm Grimm, Deutsche Sagen (Berlin,1891) p. vii, Stith Thompson, The Folktale, (Berkeley,1977/1946); Max Luthi, "Aspects of the Märchen and the Legend, "in Folklore Genres, Ben Amos (ed) and The European Folktale: Form and Nature (Philadelphia,1982).

(٥٠) Lida Degh."Folk Narative, "In Folklore and Folklife. Richard M. Dorson (ed) (Chicago,1977,p.73.

(٥١) Linda Degh; "Processes" pp.82-85.

(٥٢) عندما قابلت الشيخ أحمد فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليو ١٩٨١ كان عمره حسب قوله "فوق للخمسين شوية" والشيخ أحمد هو أحد أبناء الشيخ هجو مؤسس العمارة الشيخ هجو. وقد تلقى الشيخ أحمد تعليمه من والده. وهو اليوم خليفة الشيخ هجو وقد انتقلت اليه الخلافة بعد وفاة أخيه الشيخ تاج الدين فى العام الماضى (١٩٨٩). وقد تميّز أسلوبه بالحرص على توثيق النصوص التى رواها وبالاسهاب فى شرح ما يرى أنّه قد يكون غريبا على السامع خاصّة الألفاظ والعبارات ذات المعانى الصوفية.

(٥٣) هو الأستاذ عوض عثمان الموظف ببنك السودان وخرّيج كلّية الاقتصاد،جامعة الخرطوم. وعند تسجيل الحكايات كان الأستاذ عوض فى بعثة دراسية بجامعة بول بمدينة منسى بولاية أنديانا بالولايات المتحدة الامريكية. وكان آنذاك (١٩٨٢) فى حوالى الخامسة والثلاثين من العمر. وفى خلال روايته أشار الى أنّ بعض الكرامات "مجرّد مبالغات" وضرب الأمثلة المشار اليها. وهذه توّكد وجهة النظر القائلة بأنّ مدى اعتقاد حامل الأسطورة لا علاقة له بانتشارها.

(٥٤) يلاحظ الاختلاف فى موتيفات القصص التى أوردناها. ففى القصة الأولى مثلا نجد الموتيف الأساسى هو "إطاعة الطيور لأمر الشيخ" بينما الموتيف فى القصة الثالثة هو "القوّة السحرية فى العلاج" أو "معالجة الجنون بقوّة السحر". وفى القصة الرابعة نجد أنّ الموتيف الرئيسى هو "انزال المطر بواسطة الصلاة"،